من " البارك الشابّة " لپول ڤاليري

رواد طرسيه

« البارك الشابة » (La Jeune Parque) مطولة شعرية تبلغ ٥١٢ بيتاً ، قد تكون قمة ماتوصل اليه پول فاليري في عالم الشعر . انها وصيته الاخيرة أوان تراءى له ، خلال الحرب العالمية الاولى ، ان التراث الفرنسي سيغمر . فقد ارادها اذاً وداعاً منه للشعر ، وارادها تبقى – فيما لو هدرت اللغة الفرنسية بقطيبتها – شاهداً امام التاريخ على عبقرية هذه اللغة.

انها فتاة قد لا تمت بصلة الى سياتها في اسطورة الاغريق . ترمز الى وجدان الوجدان ، الى وجدان الجسد ، الى وجدان الكون بأسره . شأنها شأن « مسيو تست » و « ليونارد دي فنشي » و « فوست» و « نرسيس » : اي انها شخصية لحياة فاليري العقليـــة . من هنا مفهومها المزدوج : مفهوم فردي ومفهوم كوني .

وهي ملحمية النفَس ، بمعنى انها دائماً الى أمام . لكنها تتنكب عن السرد ، فليس ثمة حوادث بل احداث نفسية صرفة ، حتى ولو هي احياناً في شق الجسد .

. . .

يوم عقدنا النية على نقل هذه الرائعة الى العربية لم يكن يفوتنا ما في تلك المحاولة من مجازفة تبلغ الخرق. فنقل الشعر من لغةالى لغة هو دائماً مجازفة. وكيف به اذا تصدى لتحفة التحف عند فاليري ، لهذه التي يرتفع سبكها من صفاء اللغة الى مستوى الاغراض ؟ غير ان الذي شفع بنا هو الفة طويلة مع الشاعر ، وتخصص « بالبارك الشابة » بالذات ، ودهشة موصولة بدونها لا يكون شعر ، ورغبة في التمرس بالصعب ، وفوق هذا جميعه حرص على ان يكون لنا بالعربية ولو ظل ، او بعض ظل ، لهذه التحفة الفرنسية العالمية .

. . .

ليست المقاطـــع التي نثبتها هنـــا ُنقاوى . « فالبارك الشابة » وحدة متماسكة لا يفضـــل بعضها بعضاً . وان ما قصدنا اليه هو تقديم نماذج توقف القارىء على شيء من حقيقة هذا الاثر الخالد ، وعلى خطورة المطلب ووعورة السبيل . فمسانا توفقنا في نقل النظيم نظيا ، لا بل في نقل الجو الشعري من عبقرية لغة عقلية الى عبقرية لغة خيالية .

و. ط.

يا نجوماً غريبةً ذاتَ حولٍ لا يُجارى ، ولا مفرَ لرائي ،
انا لا ادري ايّ صفوٍ رحيبٍ ، ايّ شيءٍ محجّبٍ علويً
ترتضين انبلاجَه يتهادى في البعيد المدلّلِ الزمنيً ؛
انتِ يا من تغرّقين بعنفٍ في مطاوي الانامِ حتى الدموعِ ،
هذه الدفقةَ الدريرةَ من نورٍ تسامى ، ومن سلاحٍ منيعِ ،
وانطلاقاتِكِ القصيةَ تعدو في فجاجٍ من عمركِ الابديً ،
انا معْكِ وحيدةً ، اتداعى ، قد تخلّيتُ عن سريري الطريً ؛
وانا اسأل الفؤاد ، على الهادية الحلوةِ التي تتلوّى
تحت ناب الاعجوبة البكرِ ، حدّثْ عن بلاءٍ بناره تتكوّى ،
ايَ جرمٍ اتيتُ ، ايّ جُناحٍ جررته الاقدار فوق جبيني ؟...
... ام تُرى غصة يخلّفها حلمٌ تلاشى في الذاهلات العيونِ ،
عندما (عسجدُ السراج بديدٌ في مجالاتِ نفخة مخمليّه)
رحتُ اطوي مني الذراعين عمداً حول صدغيّ ، لا أحير ، رضيّه ،
في انتظار البروق من نفسي الحرى ، فيا بُعده وراء الاماني !؟

انا كلّي ؟ لكنَ كلّي لذاتي ؛ جسدي طيّعٌ لامر بناني ،
ليس الا انتفاضة واقسّي من مداه الغريبِ كلَ تخومِ ،
وانا في سلاسل اللين مني ، شُدَ عمري الى دمي المحمومِ ،
كنتُ في وعيي العميق اراني أغْرِقُ الطرفَ في مجاهل ذاتي ،
اتثنّى ، وعبر لحظٍ فلحظٍ ، اسكب التبر في لفيف حياتي .

ايّ افعى قد كنتُ اتبع ! افعى نهشتْني ،وغلغلتْ في عروقي .

●

ذيلها ضمةٌ من الشهوات الحمر !... ايّ اختلاطِ كنرٍ دفوقِ

راح ينقدّ عن تشهّيَ عنفاً ؛ اي ظمءٍ الى الصفاء كديرِ !

ايه يا حيلة ؟... من الالم الباقي ، على هديهِ ، على خيط نورِ ،
انا احسستُ فوق جرحيَ ضيماً من دخول الانوار قسْرا علَيّا ...
وُلدتْ في الخؤونِ من خدْر نفسي حُمَةٌ تنفث المهالكَ فيّا ؛
انما السمّ من صنيعيَ ، نورٌ في صميمي ، وفي خفيّ جهاتهْ :
لونه في خدود عذراءَ غابتْ في عناق لذاتها ولذاتهْ ،
هي غيْرَى ... ممَن ترى هي غيرى ؟ من تراه المهدَدُ المستبدُّ ؟
ايّ صمتٍ رحبٍ يكلّم همسا مالكي الاوحدَ الذي لا يُصَدُّ ؟

يا إلهي ! انا بجرحي الثقيلِ ليَ اختٌ خفيّةٌ تتوقدْ ،
وعلى الأكمل التنبه تعلو في فخارٍ ، وضده تتمردْ .

●

اغربي ! حاجتي الى نسلك الساذج غابتْ في هدهدات المنامِ ،
أيُهذي الافعى الحبيبةَ ... اني في اشتياقٍ التفُّ حول قوامي ،
كائناً يبعث الدوار ! وهذي العُقَدُ الوفرة التشابكِ تُضفَرْ ،
واللجاجات من امانتك الغيرى تولّي الادبار مني وتحزر ،
أرجعيها اليكِ ... نفسيَ تكفي كلّ هذا ، يا زينةً لخرابِ !
هي تدري ، مُتيهةً فوق ظلي ما عراها من غصة ومصابِ ،
كيف في حالك الليالي تشكُّ الناب نهشاً في الحلو من صخر صدري ،
فتمصّ الحليبَ وِرداً ونهلاً ، من معين الخيال والحلم يجري ...
اتركي ساعد اليواقيت هذا يتراخَ ، فهو المهدَّدُ حبّا
حظّ روحي ... لا تقدرين تُمَنّيني بما دونه اشتهاءً وغصبا ...
هدّئي ، سكّني اذاً هذه الموجات ، واستدعي لفّ هذا الدُوارِ

والوعودَ المدنّسات ... فعيني في انفتاحٍ ودهشتي في انكسارِ .
انا ما كنتُ من ثريّ صحاريّ ارجّي اقلّ من ذا النفاسِ
ينجب الفورةَ المهيجة والجُدْلَ : اضاءتْ قعورَها من ياسِ
مدّ عينيّ ما تقدّم خطوي واعتراني الفساد ، كي لفتاتي
من جحياتيَ العميقة فكراً ، تتملّى حدودَها اليائساتِ ...
انا ادري ... بعض المرارِ عيائي مسرحٌ . ليس عالم الوجدانِ
من صفاء عفٌّ بحيث الحُمَيَّا منه في شرْكها ورفضِ التداني
واندِ فاعاتِها المشعَّة لا تدفع جدران قبرها الجَهمِ دفعا .
كل شيء من انتظار طويل يستطيع الطلوع فرعاً ففرعا .
انما الظل نفسه يسلس القيد انصياعاً امام بعض النزاعِ ،
وتروح النفس الشحيحة مفتوحاً مداها ، في هزة واندفاعِ
عند طيف المسخ الذي يتلوّى دون اعتاب مدخل يتوقّدْ ...
أيُّهذا الزحاف . مهما تراءيتَ سريعاً ، على جموحك تُعقَدْ ،
يالتواءً طَواله تتوالى هدهداتُ الملامسات النواعمْ ،
ونفاداً للصبر يدنو ويدنو ، وارتخاءً ، يا ثقل ما فيه ، جاثمْ ،
انتَ ، من انت بالقياس الى ليلٍ طواني في سرمديٍّ مداهْ ؟
كنتَ ترنو الى جميل ارتخائي نائماً ، غافلاً ، تداعتْ قواهُ ...
غير اني على اتفاقٍ وثيقٍ معَ ما فيَّ من مخاطر تزخرْ ،
انا يا صولجان باخُسَ ، منها ، في الخيانات والتقلب ، امهرْ .
اهربي مني ! تابعي من جديد دابقَ الخيط من سواد الرجوعِ !
اذهبي في طلاب من هدَّه النوم ، لرقص الارداف منكِ الوضيعِ ،
جرري ، جرري فساطينك الحرّى تباعاً الى سريرِ سِوايا ،
احضني انتِ فوق افئدةٍ اخرى جراثيم ضيمها في العشايا ،
وعلى لَفِّ حلمكِ الحيواني ليلهثْ للصبحِ هَمُّ النقاءِ !...

انا يقظى . ها قد نفضتُ غياباً راقص الخطو في حواشي الفناءِ ،
ثم اطلتُ آيةً ذَبُلَ اللونُ عليها وبللتها المآقي
غير عيني ... انا اكسّر قبراً مستكيناً واتكي في ارتفاقِ
معَ اني سلطانةٌ قلقي يطفو ، بحيث الأخف في الحركاتِ
من رؤاياي بين ليلٍ وعين يستثير الزهوَ عبر حياتي . »

غير اني قد كنتَ اخشى ضياعَ الالم الحلو ، منّةَ من إلهِ !
وعلى راحتي ، من النهشة العذبة ، روّيتُ ناعمات شفاهي ،
وانا كنتُ لم اعدْ أتملّى من عديم الاحساس جسمي القديمِ ،
غيرَ نارٍ توقّدتْ فوق اطرافي بعنفٍ وغلغلتْ في تخومي :

الوداع الوداع ، قلتُ لهذي « الأنا » اختي ، اختِ الفناء ، كذابِ ...
يا « أنا » حلوة التناغم ، لا حلماً تراءتْ ، بل مرأةً من غلابِ
صلبة العود ، لدنة في التثني ، بين صمتٍ منها وفعلٍ مجرّدْ
لا حدود ! ... أيا جبيناً نقياً ، يا خيوطاً دفقاً فدفقاً تَشَرّدْ ،
تتمادى بعداً الى حدّ ان تفنى على المبهم الهواء المزغبَرْ ،
ناعماتٍ يشيلها طيَرانَ بعد لفٍّ في عُرض يمٍ تجبرْ ،
حدّثي ! .. كنتُ للنهار عروساً اتجلى ، وكنتُ صنو النهارِ
منه ابني بالحب ركناً وحيداً للدراريِّ في العلاء الغِرارِ ...

●

ايُّ لمعٍ على نواعم اهدابي تنسمتُ تبره من حجابِ ،
يا نديّ الاجفان جارت عليها ليلةُ القدْر من كنوزٍ عجابِ ،
انا قد كنتُ في الدجنات منكِ مُذهبات ، بغير هديٍ أصلّي !
طيعّات للسرمديّ مسامي ، طالما خلته احتوانيَ كلّي ،

كنتُ ذاتي له اقدّم جَنْياً مخمليّاً يلتذ منه بنهشِ ؛
غيرَ همسٍ ما كنت اسمعُ ، همسٍ يتشهى انْ لو اغيب بنعشِ
في اللباب المشقرّ تنضجه الشمس بعيداً عن طعم نفسي المريرِ .
انا ما كنتُ للضياء اضحّي بسوى منكبي المعرّى القريرِ ؛
وعلى جيديَ المعسَّلِ ــ منشاه الطريُّ اكتمالُ حُسْنِ السماءِ ــ
كان شكلُ الدنيا يجيء فيغفو . ثم اني ، ضمن الاله الضياءِ ،
في إسارٍ شريدةَ ، كنتُ اهتزُّ احتراقاً ، ادوس ارض البقاءِ ،
بين عَقْدٍ وبين حلٍّ لأظلالي تحت الكتّان . يا لهنائي !
كنتُ الوي ، على علو الاضاميم الجميلات ، كلَّ زهر ظليلِ
طوعَ فسطاني المموَّج غنجاً ، في انخفاضات عنفوان نحيلِ ؛
واذا ما تملّص الثوبُ حيناً من عصيّ العلّيقِ ، وانقدّ قسرا ،
ضدَّ خيط الحرية ، انتصب القوسُ بجسمي العنيف واشتدَّ وتْرا ،
لافظاً صبْوتي ، طليقاً معرّى تحت ستر الوانه تتألّقْ
حيةً ، راح في نزاع عليها معَ جُدْلِ الازهار ، عِرْقي المنمّقْ !

●

« ايها الذكر ، يا وقوداً ، هواه عسجدياً يهبّ ملءَ جبيني ،
انفخ الارجوان فوق قناعي لوّن الرفض ايما تلوينِ
أنْ اكون انا ، وقد أشعلتْ ذاتي ، خلافاً لما مضى من حياتي ...
اقتربْ يا دمي ، هلمَّ وحمِّرْ من قديمي الوانه الشاحباتِ
انما اللازورد كان عليه يغدق النُبل من بعاد مهيبِ ،
يا دمي ، واصبغ السواسن من عهد تقضّى ، عبدتُه بلهيبي !
ادنُ وامسحْ هذا العطاء المعفّى فوق جسمي ، هلمّ ! كيما افاجيءْ
من جديدٍ وابغض الطفلةَ الخفراء هذي ، وذا السكونَ المواطيءْ ،

والكديرَ الشفّافَ يغطس في الغاب ويطفو ... ومن جليديّ صدري
فليعاود نداءه ذلك الصوتُ مرّناً ، فما انا كنت ادري
فيه بُحّاً وقد تغلف بالحب خفيتاً مثل الحفيف المهادي ...
انما الأغْيَدُ المدلل جيدٌ في طلاب المجنّحِ الصيادِ . »

أترى كان من جَنانٍ على وشك الخوار كثيرَ قربٍ جَناني ؟
اتراني انا ، ايا هُدُباً حلواً طويلاً ، قد كنتُ في حسباني
أنني في المخلّفِ العذبِ مفترّاً لما فيك من وَعيدٍ . سألْحَد !...
يا غصون الكروم ! تاهت على خدي خيوطاً رفيقةَ اللمس تَعْنَدْ ،
امْ ترى انتَ ... من نسيجِ دنانٍ سائلاتٍ ، ومسدلُ الهدبِ حاكَكْ ،
يا رضيّ الشعاع عبر مساءٍ كسّرته سواعدٌ تتشابَكْ !

« فلْتخطّطْ عيناي ، في الفلك الاعلى تهيان، هيكلي المتكاملْ !
وليركّزْ على قواعد ذاتي مذبحٌ ليس في الوجود مماثل ! »

أصغِ ... لا تكثر التمهلَ من بَعدُ ... فان العامَ الجديد الطالعُ
لدمي كلهِ تنبأ بالرعشات تترى محجوبةً ببراقعْ :
الجليد الممتد يترك بالرغم خريدَ الماسات منه الاخيرَهْ ...
وغداً ، عند نهدةٍ من حنايا آلهات السماح تلك المنيرَهْ ،
يفِدُ الطالعَ الربيعَ فيفجو محكماتِ الاقفال فوق النبوعِ
الربيع المهيب يضحك ، يفتضُّ البكارات ... طلسماً في الطلوعِ .
غير ان النقاء يرشح قطراً في كلام مرفَّهِ الدلّ غاوي
فيروح الحنان يمتلك الارض ، حنانٌ في مهجة الارض ثاوي ...
مائسات الاشجار نفّخها الريُّ جديداً وغلّفتها البراعمْ
مثقلاتٍ برف اذرعها الالفِ وآفاقها الرحاب النواعمْ ،

راحت الآن ، فوقُ ، في مفرق الشمسِ ، تذرّي شعورها المرعداتِ
وتحثّ التصعيد في حسرة الجو بآلاف اجنحٍ مورقاتِ
تتندّى رياً وتزهو اخضراراً فتحس الفروع منها جديدهْ ...
قُلْ اليست هذي الهوائية الاسماء رعشى ، في مسمعيكَ ، ميودَهْ ،
أيُّهذا الاصمّ ! ... ماذا ، الا تسمع في الجو اثقلته السلاسِلْ
وتلوّى يرتجّ بالخشب الباقي عنيداً في رأسه المتمايِلْ ،
هذه الدوحةَ الشمولةَ ، معْ كل الهٍ وضدّ كل إلهِ
يتهادى مجذافها ، وجذوعَ الغاب تطفو ، على عظيم الجباهِ
حاملاتٍ من شامخ الارخبيلات ، بِبِرٍّ ، الى أليمِ الذهابِ
أيها الموت ، نهرَ حبٍّ دفوقٍ خبأتْهُ نواعمُ الاعشابِ ؟
مَن مِن الفانيات تصمد لا تنهدّ ، في وجه كل هذا الدوارِ ؟
مَن مِن الفانيات ؟

ــ هــا هي ذاتي وفرة الطهر ، غــير انّ قراري
يتنشّى مخاوف الرُكَب العزلاء ... هبُّ النسيم يضني كياني .
والصغير العصفور ينفذ بالصوت الى الظل حيث يعنو جَناني
صوت طفلٍ مغيَّبٍ يتعالى ... يا ورود تشيلكِ نهداتي
ظافراتٍ ، واهاً ! من الاذرع الحرّى على قفةِ الغوى المطبقاتِ ...
آه ! في ثقل نحلةٍ بين شَعري ، نقطةُ الشهد من نهاري المريبِ
تتمادى غوصاً الى القبلة الحرّى بسكر علي ازدياد سكيبِ ...
أيها النور ! ... او يُها الموت ! لكن فليطرْ بي مَن منكما كان أرشَقْ ! ...